

توظيف التراث التاريخي العربي في شعر أمل دنقل

أ. خيرة جريو
جامعة سيدي بلعباس

مَجَلَّةُ إِشْكَالَاتٍ

يعد توظيف التراث في الشعر العربي المعاصر ميدانا خصبا حيويا، ذلك لأنه يشكل علاقة وطيدة بين الشاعر وجمهوره، ومن ثم توظيفه في القصيدة العربية المعاصرة لم يكن غاية في حد ذاته، وإنما وسيلة تعبيرية جنح إليها الشاعر المعاصر، واختار من هذا التراث الحدث أو الموقف المناسب ليعبر من خلاله عن تجربة من تجاربه المعاصرة، حيث نتج عن ذلك علاقة جدلية يتبادل فيها الشاعر وتراثه، فهي علاقة تفاعل وأخذ وعطاء، وبخاصة إذا كان هذا التعامل يصدر عن وعي وذكاء بما لهذا التراث من قيم جمالية وحضارية عالية. ومن بين الشعراء الذين عادوا إلى إحياء التراث وبخاصة التراث العربي نجد الشاعر أمل دنقل الذي لا تخلوا قصائده من توظيف حادثة تاريخية أو شخصية تراثية، وقد ارتأينا أن نقدم في هذه المداخلة علاقته بالتراث التاريخي ذلك أن التاريخ من أهم الروافد التراثية التي اتكأ عليها ليعبر عن تجاربه المعاصرة بأساليب فنية مختلفة جعلت أعماله تلقى رواجاً كبيراً لدى القراء، ومن ثم فالإشكالية المطروحة هنا تتمثل في ما يلي:

- هل استطاع من خلال توظيفه للتراث أن يصل بقصيدته إلى أرقى مستويات التشكيل؟
- هل أضاف أمل دنقل إلى القصيدة العربية المعاصرة شيئا جديدا من خلال توظيفه المختلف للتراث العربي؟
- هل وجد الشاعر في الشخصيات التي استعارها من التراث العربي القديم متنفسا لأحزانه، وأحزان أمته؟



تمهيد:

يمثل التراث التاريخي مَعِينًا مهمًا يرفد الأعمال الأدبية، ويسهم في تكثيف دلالاتها، إثراء مضامينها، سواء أكانت هذه الأعمال شعرا أم نثرا. ولعل من بين

الأعمال التي أسهبت في الاتكاء على التراث التاريخي بمختلف مستوياته ومظاهره في إبداعنا العربي المعاصر، نجد الخطاب الشعري الذي استند إليه بقوة، متخذة إياه "منبعاً ثراً من منابع الإلهام الشعري، والذي يعكس الشاعر من خلال الارتداد إليه روح العصر، ويعيد بناء الماضي وفق رؤية إنسانية معاصرة، تكشف عن هموم الإنسان ومعاناته وطموحاته، وأحلامه، وهذا يعني أن الماضي يعيش في الحاضر، ويرتبط معه بعلاقة جدلية تعتمد على التأثير والتأثر"¹.

فالشاعر المعاصر، وهو يسعى جاهدا لاستحضار التراث بكثاف، لا ليعيد صياغته لنا وحسب، وإنما يسعى من خلال توظيفه إياه إلى إنتاج شعرية معاصرة تتماشى وأوضاع العصر الراهنة.

أمل دنقل وحضور التراث :

يعد أمل دنقل من أبرز الشعراء العرب المعاصرين الذين تعاملوا مع التراث التاريخي بوعي لافت، إذ استطاع انجاز قصائد شعرية متميزة من خلال احتفائه بالتاريخ العربي واستدعائه لأحداث وشخصيات تاريخية بارزة شكلت لبنات عضوية في بناء قصائده، ولعل مجاميعه (البكاء بين يدي زرقاء اليمامة، تعليق على ما حدث، أقوال جديدة عن حرب البسوس...) أصدق مثال على ذلك في الكشف عن أعماق الانهيار المكبوت في نفسية الشاعر، بسبب فظاعة الممارسة الإسرائيلية ضد الشعب العربي من جهة، ومن جهة أخرى علاقة المثقف العربي بالسلطة العاشمة، الشيء الذي جعله يرتد إلى أعماق التاريخ لينتقي ويصوغ منه أحسن النماذج القادرة على التعبير عن رؤاه المعاصرة.

فقد اتخذ الشاعر من الرموز التاريخية التي استحضرها في شعره مرآيا ينعكس عليها حاضره المؤلم، وواقعه المحزن، وما سنحاول تفحصه، في هذه المداخلات المختصرة، مقتصرين على عنصري : الأحداث التاريخية والشخصيات التاريخية، بمستوياتها الرئيسية والثانوي.

1- الأحداث التاريخية:

اتكأ أمل دنقل على ثلاثة أحداث لها صدى عميق في التاريخ العربي (حرب البسوس، موقعة حطين، مجازر أيلول عام 1975)، من أهمها "حرب البسوس"؛ هذه الحرب التي وقعت بين بكر وتغلب ابني وائل، فمكثت أربعين سنة، وقد سميت هذه الحرب باسم صاحبها "البسوس" التي أثارت بينهما الفتنة، كانت البسوس من بنمي تميم، وقد ضرب بها المثل فقالوا: "أشأم من البسوس" والبسوس هي خالة حساس بن مرة الذي غدر بكليب من أجل ناقتها التي قتلها كليب، فكان مقتله على يدي ابن عمه حساس².

أراد الشاعر من خلال هذه الحادثة أن يعبر تعبيراً مباشراً عن الحاضر، إذ استطاع أن يوازي بين حكاية مقتل كليب، وهزيمة العرب، فحرب البسوس هنا هي "الصراع العربي الصهيوني الذي ينبغي أن يطول، كما طال حرب البسوس، لأن الحق مازال مضيقاً - فالذي اغتالني محض لص - سرق الأرض من بين عيني - إنما في قاموس أمل أن - لا تقتسم مع من قتلوك الطعام - وهو يطلب غير القليل، إنه الدفاع المشروع عن النفس، انتفاضة الجسد أمام فهقهات الخنجر الغادر"³، ومن هنا أسرع ينظم رائعته "لا تصالح" في ديوانه أقوال جديدة عن حرب البسوس الذي خصّه لشهادتين فقط، مقتل كليب، ومرآتي اليمامة، وقد استوحى الشاعر مشهد مقتل كليب واستهل قصيدته بوصايا هذا الأخير (كليب) لأخيه الأمير سالم الزبير الواردة في القصة.

لجأ أمل دنقل إلى هذه القصة يستدعي منها صيغتها التحريضية، لا ليشغل عليها أو يعيد صياغتها فحسب، وإنما ليعبر من خلالها عن جو الهزيمة آنذاك رافضاً الاستسلام للعدو الإسرائيلي وعدم توقيع أي اتفاقية معه، وأنشأ يقول :

لا تصالح !
.. ولو منحوك الذهب
أُرى حين أفقأ عينك،

ثم أثبتتُ جوهرتين مكانهما ..

هل ترى ..؟

هي أشياء لا تُشترى ..

.....

لا تصالح على الدم .. حتى بدم!

لا تصالح! ولو قيل رأس برأس!

أكل الرؤوس سواء؟!!

أقلب الغريب كقلب أخيك؟!!

أعيناها عينا أخيك؟!!

.....

لا تصالح

ولو توجوك بتاج الإمارة.

كيف تخطو على جثة ابن أهلك..؟

وكيف تصير المليك..

على أوجه البهجة المستعارة؟⁴

لقد وجد أمل دنقل في هذه الحادثة التاريخية معادلا موضوعيا للواقع الذي يعيشه العالم العربي راھنا، ومحفزا مهما يعمل على تحريض الشعب العربي لنبذ الاستسلام للعدو، ودفعه إلى المقاومة والمكافحة من أجل تحقيق الحرية، التي ظل ينشد لها في معظم أعماله الشعرية، فمقتل كليب في نظره هو الراهن العربي، ودماءه هي عار العرب، ولا بد من الأخذ بالتأثر وعدم التراجع إلى الوراء:

إنها الحرب!

قد تنقل القلب

لكن خلفك عار العرب لا تصالح

ولا تنوح الهرب!⁵

ومن هنا جاء توظيف الشاعر لحرب البسوس تعبيرا عن روح العصر وهموم الواقع المكتظ بأكثر من كليب وجلييلة واليمامة والمهلهل وحساس، ويشرح أمل دنقل موقفه الفكري إزاء توظيفه لهذه الحادثة التاريخية فيقول: "حاولت أن أجعل من كليب رمزا للمجد العربي القتييل أو للأرض العربية السلبية التي تريد أن تعود إلى الحياة مرة أخرى ولا نرى سبيلا لعودتها أو بالأحرى لإعادتها إلا بالدم .. وبالدم وحده.."

وهذه المجموعة عبارة عن قصائد مختلفة، استحضرت شخصيات الحرب وجعلت كلاً منها يدلي شهادتها التاريخية حول رؤيتها الخاصة.. ومن الطبيعي أن تكون لكل من هذه الشخصيات شهادتها المختلفة عن الشهادة الأخرى..⁶ وقد تحدثنا عن شهادة كليب المتمثلة في وصاياه لأخيه سالم الزير، وأما الشهادة الثانية فهي لليمامة بنت كليب والتي تمثلت في رفض الصلح، وطلب المستحيل وذلك في عودة أبيها إلى الحياة، وذلك هو العدل في نظرها فجنده يتحدث على لسانها قائلاً:

أبي .. لا مزيد!

أريدُ أبي، عند بوابة القصر،

فوق حصان الحقيقة،

منتصبا من جديد

...

ولا أطلب المستحيل، ولكنَّ العدل⁷

ومن خلال هذا يريد الشاعر أن يؤكد أن الحرية لا تتحقق إلا بالتضحية والفداء، وسفك دماء الأعداء مثلما سفكت دماء أبناء الوطن، ولهذا نجده يلجأ إلى مثل هذه الأحداث التاريخية يستقي منها مادته التي لا تنفد، كما نجده أيضا حريصا على نقل صدى تلك الأحداث التاريخية الدامية في نفسية القارئ، مقتنعا بأن التراث العربي هو الموروث القومي الذي يعيش في أعماقه.

ودائماً وفي إطار التضحية والفداء، يقف الشاعر أمام موقعة "حطين"⁸ التاريخية بما توحى به من كفاح وانتصار في زمنها الماضي، والذي يؤلم الشاعر في الحاضر هو هوان وانكسار حطين وتحولها إلى " أداة إعجاز واستحالة يتكئ عليها العرب العاجزون والمتقاعسون عن خوض حرب التحرير"⁸، فنجدته في قصيدته "خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين" يتحدث متأسفاً :

وسنة .. بعد سنة..

صارت لهم "حطين" ..

تميمة الطفل، وأكسير الغد العنين⁹

وبالرغم من ذلك تصبو نفسية الشاعر للأمل في مستقبل منتصر، وأن الذي حققته حطين من انتصارات في الماضي يمكن معاودته وتحقيقه في الزمن الحاضر وقد أصبحت مهياًة لتحقيق ذلك يقول الشاعر:

رأيتُ في صبيحة الأول من تشرين

جندك .. يا حطين

يبكون،

لا يدرون..

أن كل واحد من الماشين

فيه صلاح الدين!¹⁰

ويشير الشاعر في قصيدته "سرحان لا يتسلم مفاتيح القدس"، إلى مجازر أيلول عام 1975 في الأردن، والتي كانت " تمثل جولة حامية من جولات الصراع بين كل الجماهير العربية وحركة تحررها القومي والاجتماعي ممثلة بالمقاومة الفلسطينية، وبين كل القوى الإمبريالية والصهيونية والرجعية العربية ممثلة بالنظام الملكي الأردني"¹¹، وقد أخذ أمل دنقل بهذه الحادثة، وصورها في هذه الأبيات :

منظر جانبي لعمان عام البكاء

والحوائطُ مرشوشةٌ ببقايا دم لعنته الكلاب

ونهدؤ الصبايا مصابيح مطفأة ..
 فوق أعمدة الكهرياء
 منظرٌ جانبيّ لعمان؛
 والحرس الملكي يفتش ثوب الخليفة
 وهو يسير إلى "إيلياء"
 وتغيب البيوت وراء الدخان
 وتغيب عيون الضحايا وراء النجوم الصغيرة
 في العلم الأجنبي،
 ويعلوا وراء نوافذ "بسمان" عزف البيان!¹²

فقد وقف الشاعر عند تصوير هذه الحادثة التاريخية المعاصرة وأحداثها
 المأساوية، والتي تركت - بلا ريب- أثراً عميقاً في نفسيته، ولعل استلهامه للتاريخ
 العربي الحديث يعد عنصراً فعالاً في تجربته الشعرية، فمثلما تعامل مع الأحداث
 التاريخية القديمة، تعامل مع الأحداث التاريخية الحديثة، والتي وجد فيها منبعاً ثراً من
 الدلالات الإيجابية التي تخدم رؤاه الشعرية، وتقربه أكثر فأكثر إلى قلوب متلقيه.

2- الشخصيات التاريخية :

عكف أمل دنقل على استحضار الشخصيات التراثية في أعماله الشعرية
 بكثافة، إذ استطاع أن يعيد إحياءها وفق رؤيا شعرية تتلاءم مع الحاضر، فدخلت
 هذه الشخصيات عالمه الشعري وهي محملة بدلالات جمّة فكرية كانت أو نفسية،
 ويمكننا تصنيف هذه الشخصيات إلى نوعين : شخصيات رئيسية تتمحور عليها
 قصائده، وأخرى ثانوية جاءت جزءاً من السياق القصيدة أو عبارة عن إشارات
 عابرة.

أ- الشخصيات الرئيسية:

من الشخصيات المهمة التي سجلت حضوراً فعالاً في شعره، والتي مثلت
 صورة صادقة عبّر من خلالها الشاعر عن إحساسه بالهزيمة؛ هزيمة العرب في حزيران
 1967، وهنا يمكننا القول أن هذه الهزيمة هي بداية شهرة الشاعر، والدافع

الأساسي في لجوئه إلى التراث العربي المليء بالتجارب الإنسانية، التي تحض على الالتزام كون الشاعر أمل دنقل شديد الارتباط بتراثه العربي مستسلما لأسئلة قضت مضجعه مفادها: الحرية، الحق، والجمال، ف"الحرية تأخذ الأوليّة لأنّ الحق مرتبط بتحقيقها والجمال نتيجة لتحقيقهما"¹³ هذا ما أكّده أمل دنقل بغية إبراز موقفه غير المحايد فالشاعر المحايد في نظره شعره منه إليه لأنّ حياد الإنسان يقتل في داخله الطموح¹⁴، فأمل دنقل يدرك مسؤوليته تجاه الكتابة عن الواقع وما يفرضه من التزام نحو الوطن الذي أصبح قضية تراثية يتداول ذكرها الشعراء، وتتوارث سماعها الأجيال، وذلك وعيا منه أنّ الشيء الذي يمكن التمسك والاحتماء به في هذا العالم المليء بالتناقضات هو التراث العربي الراسخ في ذاكرة القارئ العربي ومن ثم كان لشخصية "زرقاء اليمامة"^{**} حضورا بارزا ومحوريا هادفا .

يعد حضور زرقاء اليمامة المشهورة في التاريخ العربي بحدة نظرها حضورا ماثلا مع ما تعانيه نفسية الشاعر إزاء ذلك الوضع السيئ، فقد "عبر من خلال قصتها مع قومها عن موقف السلطة من المثقف الذي رأى ما لم تره، وكان في رؤيته إرهابا بالأحداث، بيد أن السلطة تغافلت عن رؤيته"¹⁵، فجاءت قصيدته "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة" كرد فعل للهزيمة أكد من خلالها التشابه بين الماضي والحاضر، فنجدته يتحدث متأسفاً منها:

أيتها العرّافة المقدسة..
 ماذا تفيد الكلمات البائسة؟
 قلت لهم ما قلت عن قوافل العبار..
 فاتهموا عيني، يا زرقاء بالبوار!
 قلت لهم ما قلت عن مسيرة الأشجار
 فاستضحكوا من وهمك الثرثار!
 وحين فوجئوا بحدّ السيف : قايسوا بنا..

والتمسوا النجاة والفرار!¹⁶

ونجد أيضا حضوراً أثرياً لشخصية ابن نوح في قصيدته "مقابلة خاصة مع ابن نوح"، حيث يلجأ الشاعر إلى القصة القرآنية ليستقي منها شخصية ابن نوح، ليضمها إلى الشخصيات التاريخية، وقد وظفت هذه الشخصية تجسيدا لموقفه المصّر على البقاء في الوطن، ومحاولة تغييره من دون التخلي عنه بالنزوح منه. فإذا كانت شخصية ابن نوح هي الشخصية العاصية في القصة القرآنية، فقد قلبها الشاعر رأساً على عقب حيث جعل من هذه الشخصية العاصية، شخصية ثائرة مصرة على البقاء¹⁷، وإذا أمعنا النظر في هذه القصيدة نجد أنها إنبت على مفارقة كلية بين فئتين متضادتين، فئة النزوح الذي اختار ممثلوها النجاة والفرار من الطوفان بسفينة نوح عليه السلام:

جاء طوفان نوح.

ها هم "الحكماء" يفرون نحو السفينة

المغنون - سانس خيل الأمير - المرابون - قاضي القضاة

(.. ومملوكه!) -

حامل السيف - راقصة المعبد

(ابتهجت عندما انتشلت شعرها المستعار)

- جباة الضرائب - مستوردو شحنات السلاح -

عشيق الأميرة في سمته الأنثوي الصبح !

جاء طوفان نوح

ها هم الجبناء يفرون نحو السفينة¹⁸

أما الفئة الثانية فضلت البقاء، واختار أصحابها محاربة الطوفان وعدم التخلي عن الوطن حتى ولو فقدوا حياتهم، ومن بينهم ابن نوح الذي جعل منه الشاعر الشخصية الثائرة بدلاً من الشخصية العاصية وبيدأً التحدث على لسانه قائلاً:

ولنا المجد نحن الذين وقفنا

(وطمس الله أسماءنا!)

نتحدى الدمار ..

ونأوى إلى جبل لا يموت

(يسمونه الشعب!)

نأبى الفرار ..

ونأبى النزوح!¹⁹

ومن الشخصيات الرئيسية أيضا تحضر شخصية "عبد الرحمان الداخل"*** في قصيدته "بكائية لصقر قريش"، فإذا كان صقر قريش رمزا للقوة والشجاعة، فقد غدا عند أمل دنقل رمزا للمسيح المصلوب:

أنت ذا باقٍ على الرايات .. مصلوبا .. مباحا

تصرُّ الريحُ؛ وأضلاعك كالروض المصَّوح

تنشهى لذغة الشمس التي تنسج للدفءِ وشاحا!

أنت ذا باقٍ على الرايات مصلوبا .. مباحا²⁰

ففي إطار الواقع المعيش تتخذ صورة صقر قريش في شعر أمل دنقل طابع الهزيمة والانكسار، وما بكائيته لصقر قريش في حقيق الأمر إلا بكائية للراهن العربي المهزوم.

وتأتي شخصية "صلاح الدين"*** في قصيدته "خطاب غير تاريخي على قبر صلاح الدين"، يستخدم فيها الشاعر هذا الرمز الذي يرتبط بتحرير فلسطين في مقابلة مع الزمن الآني، الذي يعمّ فيه التخاذل وتقوى شوكة المستعمر، دون أن يجد مقاومة²¹، والشاعر يوضح في هذه القصيدة واقع العرب الآني من خلال استدعائه لهذه الشخصية وإعادة تشكيلها وفق حاجته الإبداعية والتي يريد بها إيصال الفكرة إلى المتلقي:

أنتَ استرخي أخيرا ..

فوداعا يا صلاح الدين.

أيها الطبلُ البدائيُّ الذي تراقص الموتى

على إيقاعه المجنون.

يا قارب الفلّين

للعرب الغرقى الذين شتتهم سفن القراصنة

وأدركتهم لعنة الفراعنة²²

وإلى جانب هذا يستحضر أيضا الشاعر العباسي "أبا نواس" الذي أخذ هو الآخر بعدا تاريخيا ليعبر من خلال قصيدته "أوراق أبي نواس" عن التناقض القائم بين السلطة والمثقف، مما أدى إلى انعدام العدل وغياب الكلمة الصادقة الهادفة، ولهذا نجد في مطلع هذه القصيدة متسائلا ومن وراء تساؤله هذا إدانة واتهام إلى الزمن الراهن:

"ملك أم كتابة؟"

صاح بي صاحبي؛ وهو يلقي بدرهمه في الهواء

ثم يَلْقُفُهُ..²³

وعلى رأي جابر قميحة أنه "حينما يغيب العدل وتخنق الكلمة الحرة تقع "السلطة الغاشمة" على مرعاها الخصب، وتلقي الاتهامات جزافا على من تشاء"²⁴، وهذا ما كان يسعى الشاعر للإفصاح عنه.

وإثر الهزيمة دائما يوظف الشاعر شخصية "المتنبي" والتي أراد من خلالها التعبير عن موقفه وآرائه، يقول تائر زين الدين في كتابه "أبو الطيب المتنبي في الشعر العربي المعاصر" أن أمل دنقل "تمكّن من جعل هذه الشخصية عنواناً على مرحلة تمرُّ بها مصر في الستينات وتحديدًا بعد النكسة، لقد أنشدَ دنقل من البداية حتى النهاية بلسان المتنبي، وكان يتبنّى مواقف وأحلام هذه الشخصية التي بَثَّ في عروقتها شيئاً من دمه هو"²⁵، وفي سياق تطابق ماضي المتنبي مع حاضر أمل دنقل نجدته يتحدث قائلا:

أمثل ساعة الضحى بين يدي كافور

ليطمئن قلبه؛ فما زال طيره المأسور

لا يترك السجن ولا يطير!

أبصر تلك الشفة المثقوبة
ووجهه المسودّ، والرجولة المسلوّبة
.. أبكي على العروبة!²⁶

استطاع أمل دنقل من خلال اتكائه على شخصية المتنبي أن يسقط الماضي على الحاضر، حيث أفاد من حبس كافور الإخشيدي لأبي الطيب المتنبي، وقدمها لنا في صورة موازية، صادقة لإحساسه بالهزيمة، والصراع العميق بين الإنسان العربي المثقف والسلطة، وعلى حد تعبير إحسان عباس أن الشاعر المعاصر حين يرجع إلى الماضي لا يدينه، وإنما يدين " تعهّر " الماضي بين أيدي السادة في الحاضر كما يميل إلى محاكمة الحاضر، وفضح أساليبه²⁷

كانت هذه الشخصيات الرئيسية من أهم الرموز التاريخية التي اتكأ عليها الشاعر موازيا بين ما كان، وما هو كائن، إذ استطاع من خلال اللجوء إليها أن يعمق المعنى وينقل إلينا التجربة الإنسانية المعاصرة، ولعل الشاعر هنا " يختار من شخصيات التاريخ ما يوفق طبيعة الأفكار والقضايا والهموم التي يريد أن ينقلها إلى المتلقي"²⁸، فالشخصيات التاريخية المستدعاة إذن شأنها شأن الشخصيات المعاصرة التي تسير وإياها في الزمن الحاضر.

ب - الشخصيات الثانوية:

إلى جانب استخدام الشاعر شخصيات تاريخية تمحورت عليها بعض قصائده، فقد عمد إلى استحضار شخصيات تاريخية أخرى لها موقعها المتميز في التاريخ العربي، بيد أنها جاءت جزءا من سياق قصائده، ومن ذلك حضور شخصية القائد العربي "خالد ابن الوليد" في قصيدة "الموت في الفراش"، والعنوان كما هو واضح مستوحى من مقولة خالد ابن الوليد المشهورة والتي قالها لما دنا حتفه، والتي استهل بها الشاعر هذا المقطع :

" أموت في الفراش .. مثلما تموت العير "

أموت، والنفير ..

يدق في دمشق ..

أموت في الشارع : في العطور والأزياء

أموت، والأعداء

تدوس وجه الحقّ

" وما بجسمي موضع إلا وفيه طعنٌ برمح "

.. إلا وفيه جرح،

إذن.

" فلا نامت عيون الجبناء".²⁹

كما تحضر شخصية الإمام حسين رضي الله عنه بكل ما تحمله من دلالات الاستشهاد والتضحية والفداء، فقد " رأى شعراؤنا في الحسين عليه السلام الممثل الفذ لصاحب القضية النبيلة، الذي يعرف سلفاً أن معركته مع قوى الباطل خاسرة ولكن ذلك لا يمنعه من أن يبذل دمه الطهور في سبيلها، موقناً أن هذا الدم هو الذي سيحقق لقضية الانتصار والخلود، وأن في استشهاده انتصاراً له ولقضيته"³⁰، وقد وقف أمل دنقل أمام ظمأ الحسين، أمام جرعة ماء التي مات ولم تقدم له، فتحضر شخصية الحسين ومقتله في كربلاء في الورقة السابعة من قصيدة " من أوراق أبي نواس " في سؤال حير الشاعر:

كنت في كربلاء

قال لي الشيخُ إن الحسين

مات من أجل جرعة ماء!

... ..

وتساءلتُ

كيف السيوف استباحت بني الأكرمين

فأجاب الذي بصّرتَه السماء :

إنه الذهب المتألُّئ: في كلِّ عين³¹

فقد جعل الشاعر من مأساة الحسين في هذه الأبيات معادلاً موضوعياً للإنسان العربي الذي تعرض للخيانة والإهانة، كما يقصد أيضاً المثقف العربي صاحب الكلمة الصادقة التي حرم من الإدلاء بها تماماً مثل الحسين رضي الله عنه الذي حرم من شربة ماء ترد له الحياة، ففضل الاستشهاد، كما يعبر أيضاً عن النفوس الضعيفة التي يعميها الذهب المتألئ، عن الضمائر الميتة التي تخلت عن المبادئ الأخلاقية الإسلامية والقيم الإنسانية النبيلة، فكانت النتيجة وخيمة.

وفي إطار الاستشهاد دائماً يستخدم الشاعر شخصية "مازن جودت أبو غزالة"****، وهي شخصية تاريخية معاصرة، أراد الشاعر من خلال توظيفها أن يعبر عن الكفاح والنضال من أجل استعادة الأرض الفلسطينية المسلوبة، وتحقيق الحرية، إذ جعل من هذه القضية، قضية مزدوجة بين الشعب الفلسطيني والشعب المصري، فكل من مازن جودت أبو غزالة وأمل دنقل يبكي وطنه المنكسر ويتضح لنا هذا من خلال القصيدة التي نظمها الشاعر يرثي فيها صديقه مازن جودت أبو غزالة الذي رحل مع العاصفة استهلها بقوله :

للوهملة الأولى

قرأت في عينيه يومه الذي يموت فيه
 رأيت في صحراء " النقب " مقتولاً ..
 منكفئاً .. يغرر فيها شفتيه؛
 وهي لا تردُّ قبلةً .. لفيه!
 نتوه في القاهرة العجوز، ننسى الزمنا
 نفلت من ضجيج سياراتها، وأغنيات المتسولين
 نُظلنا محطة المترو مع السماء .. متعيين.
 وكان يبكي وطننا .. وكنتُ أبكي وطننا
 نبكي إلى أن تنضب الأشعار
 نسألها: أين خطوط النار؟

وهل ترى الرصاصة الأولى هناك .. أم هنا؟³²

ووظف الشاعر شخصية "الحجاج" ليعبر بها عن "رموز السلطة الباطشة، التي يستوجب عليها أن تقوم بحراسة الأرض من غارات الأعداء، بدلا من أن تقوم بحمايتها تسهم في التفريط فيها"³³، ويوضح هذا في قصيدته "الأرض والجرح الذي لا يفتح"، قائلا:

من أنت يا حارس؟

إني أنا الحجاج..

عصّني بالتاج..

تشرئبها القارس!³⁴

ويقف أيضا عند شخصية "الحسن الأعصم"***** ليعبر من خلال توظيفها عن بطش الاستعمار بما فيها قتل الأبرياء ومنهم الأطفال والنساء، فنجدته متحدثا في قصيدته "في انتظار السيف":

عادت الخيل من المشرق،

عاد (الحسن الأعصم) والموت المغير

بالرداء الأرجواني، وبالوجه اللصوي،

وبالسيف الأجير

فانظري تمثاله الواقف في الميدان..

(يهتئ مع الريح!)

انظري من فرجة الشباك:

أيدي صبيّة مقطوعة..³⁵

واستحضر الشاعر أيضا شخصية "عثمان بن عفان" رضي الله عنه وبالتحديد مقتله وهو القائل "إن الناس قد أسرعوا إلى الفتنة وطال عليهم عمري ... أما والله لئن فارقتهم ليتمنون لو أن عمري طال فيهم كل يوم بسنة وذلك مما يرون من الدماء المسفوكة ..!!"³⁶، وقد استخدم الشاعر مقتل عثمان رضي الله

عنه ليعبر عن ديمومة واستمرار الخيانة وانتشار الفتن، كما يحرص على التصدي للعدو مخاطباً رجال العرب

قالت امرأة في المدينة
من ذلك الأموي الذي يتباكى على دم عثمان!
من قال أنّ الخيانة تنجب غير الخيانة؟
كونوا له يا رجال..

أم تحبون أن يتفياً أطفالكم تحت سيف ابن هند؟³⁷

ومن الشخصيات الثانوية التي وظفها أيضا والتي كان لها دورا بارزا في الكشف عن موقفه هي شخصية "عنترة العبسي"، والتي جاءت في سياق قصيدة "البكاء بين يدي زرقاء اليمامة"، وقد جاء استغلاله لهذه الشخصية لتبيان العلاقة القاسية بين السادة والعبيد ليخلص بذلك إلى الصراع القائم بين المثقف العربي وبين السلطة الغاشمة، وقد جسّد عنترة هذا الموقف وأصبح يرمز على حد تعبير كاملي بلحاج إلى " الشعب العربي الذي تركه الحكام في صحراء الإهمال يسوق النوق إلى المراعي ويحلب الأغنام وينام في الحظائر حتى إذا ما أنشبت الحرب أظافرها، أسرعوا إليه مستصرخين يدعونه للدفاع عن أموالهم وأنفسهم"³⁸، فنجدته يتحدث على لسان عنترة العبد البائس الذي لا حول له ولا شأن :

قيل لي " اخرس.."

فخرستُ .. وعميت .. وائتممتُ بالخصيان!

ظلمت في عبيد (عبس) أحرس القطعان

أجتزّ صوفها..

وأحرص القطعان

أنام في حظائر النسيان

طعامي: الكسرةُ .. والماءُ .. وبعض التمرات اليابسة.

وها أنا في في ساعة الطعان

ساعة أن تخاذل الكماة .. والرماة .. والفرسان

دُعيت للميدان!³⁹

وفي قصيدته "لا وقت للبكاء" يحشد الشاعر فيها شخصيات تراثية غنية وبارزة في التاريخ العربي مثل الخنساء، وأسماء وشجرة الدر..، ولكن توظيفهما جاء عبارة عن إشارات عابرة وذلك في قوله :

رأيتها: الخنساء

ترثي شبابها المستشهدين في الصحراء

رأيتها: أسماء

تبكي ابنها المقتول في الكعبة،

رأيتها : شجرة الدر..

تردُّ خلفها الباب على جثمان (نجم الدين)

تُعلق صدرها على الطعنة والسكين.⁴⁰

ونجد إشارة إلى رأس النفاق عبد الله ابن أبي ابن سلول بكل ما تحمله هذه الشخصية من صفات النفاق والردالة والقبح في قصيدته "الأرض والجرح الذي لا ينفث"

وأراك .. و " ابن سلول" بين المؤمنين بوجهه القزحيّ..

يسري بالواقعة فيك،

والأنصار واجمة..

وكل قريش واجمة

فمن يهديه للرأي الصواب؟!⁴¹

وهناك أيضا إشارة تاريخية عابرة في قصيدته " إلى صديقة الدمشقية"، حيث استخدم الشاعر كلمة " التتار" بكل ما توحى به من دمار وهلاك وفساد واعتداء، يقول:

إذا سباك قائد التتار

وصرت محظية ..

فشد شعرا منك في سعار

وافتنض عذرية..

واغرورقت عيونك الزرق السماوية

بدمعة كالصيف، ماسية

وغبت في الأسوار؛

فمن ترى يفتح عين الليل بابتسامة النهار؟⁴²

فقد ساهمت هذه الشخصيات التاريخية الرئيسية منها والثانوية في انفتاح النص الدنقلي على آفاق دلالية رحبة يتوازى فيها الحاضر مع الماضي، وتتطابق فيها الهزيمة الماضية مع الهزيمة الآنية، ومن خلال توظيفه الكثيف لهذا التراث وعلى مدار تجربته الشعرية المتميزة استطاع أمل دنقل أن يجد في الرمز التاريخي معادلا موضوعيا للمشاعر الذاتية والموضوعية.

هوامش :

- 1 - إبراهيم نمر موسى، توظيف الشخصيات التراثية في الشعر الفلسطيني المعاصر، عالم الفكر، العدد 02، المجلد 33، الكويت، أكتوبر، ديسمبر، 2004، ص 117.
 - 2 - ينظر، محمد أحمد جاد المولى، علي محمد الجاوي، محمد أبو فضل إبراهيم، أيام العرب في الجاهلية، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1988، ص 142.
 - 3 - أحمد الدوسري، أمل دنقل شاعر على خطوك النار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 2004، ص 173.
 - 4 - أمل دنقل، الأعمال الشعرية، مكتبة مذبولي، ص 399، 396، 394.
 - 5 - المصدر نفسه، ص 395.
 - 6 - أمل دنقل من حديث له مجلة آفاق عربية 1981، نقلا عن "تذيل" في آخر المجموعة من أعماله الشعرية، ص 427.
 - 7 - الأعمال الشعرية، ص 410.
- * - حطين: موقعة حربية شهيرة تمثل منعطفًا في تاريخ الصراع العربي ضد الصليبيين، حيث استطاع القائد المسلم "صلاح الدين الأيوبي" أن يتصدى لجحافلهم وأن يشتت شاملهم ويعمل فيهم قتلا وجرحا حتى بدد جيشهم وأسر مليكهم في الخامس من يوليو سنة 1187م/ 583هـ، وخلدت هذه الموقعة اسم القائد العربي "صلاح الدين".

- 8 - منير فوزي، صورة الدم في شعر أمل دنقل، مصادرها، قضاياها، ملاحظاتها الفنية، دار المعارف، (ج.م.ع)، ط1، 01، 1995، ص59.
- 9 - الأعمال الشعرية، 470.
- 10 - المصدر نفسه، ص321.
- 11 - سهيل الخالدي، مجازر أيلول في الرواية العربية، مجلة أقلام، العدد السابع، وزارة الثقافة والفنون، بغداد، نيسان، السنة الثالثة عشر، 1978، ص05.
- 12 - الأعمال الشعرية، ص348.
- 13- أنس دنقل، أحاديث أمل دنقل، مطابع نيولوك، القاهرة، 1992، ص5.
- 14 - ينظر، المرجع نفسه، ص5.
- ** - زرقاء اليمامة هي فتاة جديس التي جاء حسان بن تبع ملك حمير يهاجم قومها فرأت جيشه على مسيرة ثلاثة أيام وأندرت قومها فلم يصدقها، وقد عرف حسان بقدرة الزرقاء على الرؤية من بعد فأمره جنوده أن يقطع كل منهم شجرة ويحملها على كتفه تضليلاً للزرقاء ففعلوا، وعادت الزرقاء تخبر قومها بهذا فكذبوها حتى داهمهم جيش حسان فأبادهم، واتى بالزرقاء ففقاً عينها، فإذا فيها عروق سود، فقال لها حسان ما هذا السواد في عروق عينيك؟ قالت : حُجِّير أسود يقال له الإثم، كنت أكتحل به، وكانت اليمامة فيما ذكروا أول من اكتحل بالإثم، أنظر، جعفر محمد بن حرير الطبري، تاريخ الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ص630.
- 15 - منير فوزي، صورة الدم في شعر أمل دنقل، ص55.
- 16 - الأعمال الشعرية، ص163.
- 17 - ينظر أحمد الدوسري، أمل دنقل شاعر على خطوط النار ص98.
- 18 - الأعمال الشعرية، 466.
- 19- نفسه، ص468.
- *** - عبد الرحمان الداخل: هو عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الملقب بصقر قریش، ويعرف بالداخل، الأموي مؤسس الدولة في الأندلس. ولد في دمشق سنة مائة وثلاثة عشر للهجرة، وتوفي بقرطبة سنة مائة واثنين وسبعين للهجرة، استطاع أن يفر من المذابح التي أقامها العباسيون لبني أمية، وأن يؤسس دولة عظيمة في الأندلس.
- 20 - الأعمال الشعرية، ص473.
- **** - صلاح الدين الأيوبي (532 - 589 هـ = 1137 - 1193 م) يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر : من أشهر ملوك الإسلام . انظر، خير الدين الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ج08، دار العلم للملايين، ط05، بيروت، لبنان، ماي، 1980، (قرص مرن).
- 21 - منير فوزي، صورة الدم في شعر أمل دنقل، ص56.
- 22 - الاعمال الشعرية، ص470.
- 23 - المصدر نفسه، ص378.
- 24 - جابر قميحة، التراث الإنساني في شعر أمل دنقل، ط1، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، 1987، ص120.

- 25 - نائر زين الدين، أبو الطيب المتنبي في الشعر العربي المعاصر، منشورات إتحاد كتاب العرب، دمشق، 1999، ص41.
- 26 - الأعمال الشعرية، ص237.
- 27 - ينظر، إحسان عباس، اتجاهات الشعر العربي المعاصر، دار الشروق، عمان الأردن، ط02، 1992، ص114، 115.
- 28 - علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، ص120.
- 29 - الأعمال الشعرية، ص314.
- 30 - علي عشري زايد، استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر، ص122.
- 31 - الأعمال الشعرية، ص384.
- ***** - مازن جودة أبو غزالة: مناضل فلسطيني، كان طالبا حين التقى به "أمل دنقل" في القاهرة، عمل موظفا سياسيا في قوات "العاصفة"، الجناح العسكري لحركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" والتي تأسست عام 1956، استشهد في "طوباس" بالأرض المحتلة في الثاني من نوفمبر 1967. أنظر، منير فوزي، صورة الدم في شعر أمل دنقل، ص50.
- 32 - الأعمال الشعرية، ص145.
- 33 - منير فوزي، صورة الدم في شعر أمل دنقل، ص53.
- 34 - الأعمال الشعرية، ص155.
- ***** - الحسن الأعصم: هو الحسن بن أحمد بن أبي سعيد الجنائبي القرمطي، كان مولده بالإحساء، وتوفي بالرملة ستة وستين وثلاثمائة للهجرة، غلب على الشام، وكان كبير القرامطة، واستتاب على دمشق "وشاح بن عبد الله"، وقدم إلى دمشق، وكسر جيش المصريين وقتل "جعفر بن الفلاح"، ثم توجه إلى مصر وحاصرها شهورا، وكان يظهر طاعة أمير المؤمنين الطائع.
- 35 - الأعمال الشعرية، ص245.
- 36 - السيد الجميلي، صحابة النبي السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، دار التراث الإسلامي، باتنة، الجزائر، ص57.
- 37 - الأعمال الشعرية، ص477.
- 38 - كاملي بلحاج، أثر التراث في تشكيل القصيدة العربية المعاصرة، اتحاد كتاب العرب، دمشق 2004، ص64.
- 39 - الأعمال الشعرية، ص162.
- 40 - المصدر نفسه، ص318.
- 41 - نفسه، ص157.
- 42 - نفسه، ص54.